نابليون على فراش الموت

كتاب ألفه جوزيف أبوت

وترجمه أو فى الواقع عربه الدكتور مصطفى الديوانى.

قرأت هذا الكتاب وقرأت كتبا أخرى عن نابـليون، لاحبا فى نابليون فبينى وبينه ثأر منذ سنة ١٧٩٨.

ثم إنى لا أحب المجد الدموى الذى يقوم على أشلاء الضحـايا... ضحايا الجبروت والعدوان والطغـيان... ولكنى قـرأته لأرى (الإنسان) حـين يفـيق.. ما رأيه هو الجـبروت والطاغـوت؟ هل تستحق الحياة القصيرة مهـما طالت أن تنفق فى التعذيب؟ تعذيب النفس وتعذيب الأخرين؟ ومن هذه الزاوية كان الكـتاب مدرسـة تعلمت فيهـا.. وهل مدرسة أغنى مـن مدرسة الحـياة بتجـاربها وذرى القمة ومهابط القاع.

رأيت فى هذا الكتـاب جبار، كـان فى رأى «كارلـيل» مؤلف كـتـاب الأبطال ليس بطلا بل إنسانا متوسطا على الرغم من الفتوحات والغزوات.

ما أجـمل حلى الأدب وأمجـاد الفكر والعلم.. يكفى أنهـا تسلم من الأذى وتبرأ مـن القذى وتسعد بإشراقات وهناءات، تضاعف العمر فى الحياة وبعد الحياة.

بعد أن دوخ نابليـون الجيوش.. جيـشه وجيوش الآخـرين.. بعد قتل عشـرات الآلاف.. بعد كل ضروب الوحشـية فى سبيل مـجد دموى بلى بالقهر ومـنى بالهزيمة.. وبعد ليلة ليـلاء أعقبت هزيمة فى ووترللو، دخل عليه صـبى ريفى جميل يحمل طعام الافطار كان قـد أخبره يوما أن أباه يملك كوخا وبضعة أفدنة.

حين تذكر نابليون القـصة قال الذى لم يملأ عينه ويشبع جشعه مـلك، فرنسا وقصور الحكم فيها: هذه هى السعادة.

لقد علمته المحنة أشياء خفيت عنه طويلا...

لقد حاولت انجلترا إذلاله فى منفاه بجزيرة سانت هيلانه إلى الدرجة التى حرمت على السير جورج كوكبورن الذى كلفته بمرافقته أن يناديه بلقب «جنرال» وليس بلقب الملك أو الامبراطور..

أصغى نابليون إلى هذا القرار بهدوء ووقار دون أن تظهر عليه علامات التأثر حتى إذا ما انتهى من سماعه قال فى كبرياء (إنهم ينادوننى بلقب جنرال. حسنا! ليكن لقبى كبير أساقفة إذا شاءوا، فإننى بحكم مركزى كامبراطور كنت رئيس الجيش والكنيسة معا!).

لقد جرد من أسلحته جميعا فلم يبق له إلا سلاح السخرية يحفظ عليه تماسكه. قال نابليون يوما لطبيبه ساخرا من الأيام التى سخرت منه أولا: (ألا ترى بعينيك مظاهر العظمة والأبهة التى تحيط بى فى هذا الركن الحقير.. شمعدانان بسيطان.. فنجانان مذهبان مقص صغير.. كوبة ماء.. زجاجتان من ماء الكولونيا... سرير حديدى... هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضى... أين هذا من قصور التويلرى والأليزيه..)

وعندما جال الطبيب ببصره فى الغرفة لاحظ آثار الرطوبة الشديدة على جدرانها لدرجة أتلفت جميع الأبسطه المزركشة التى غطيت بها الجدران وكان مرسوما على أحدها صورة نسر كبير فنظر إليه نابليون وقال وهو يبتسم فى مراره: (أيها النسر العزيز. كان خليقا بك أن تظل محلقا فى الفضاء الواسع، لولا أن الذين ظللتهم بجناحيك خذلوك ونتفوا ريشك).

وبعد أربع سنوات فى المنفى آدته فيها الآلام، التفت إلى طبيبه الذى يمشى إلى جانبه فى الحديقة الصغيرة وقال: (بماذا تشير على ياطبيبى العزيز.. أما من وسيلة ألجأ إليها لأبعث النشاط إلى أطراف جسمى؟) فأجابه الطبيب (ياحبذا لو حاولت ممارسة أى نوع من الرياضة. ما رأى جلالتكم فى حرث الأرض وتعهد هذا البستان الصغير بنفسك؟) فارتاح نابليون إلى الفكرة وصاح قائلا: (يالها من فكرة صائبة سأبدأ من باكر).

وبدأ وخذلته قواه فى البداية ولكنه أعاد المحاولة حتى ألف عمله الجديد وتحولت الحديقة الجرداء إلى بستان منسق.

وفى يوم قام من مقعده على الرغم من ضعفه الشديد وأخذ يسير فى بطء نحو حوض صغير بناه بنفسه، وأخذ يتسلى بمراقبة أسماك صغيرة حمراء اللون وهى تلعب فى الماء، وكان يرمى لها

قطعا صغيرة من الخبز ويبتسم في تثاقل لرؤيتها وهي تلتهم الخبز في نشاط عجيب، وفجأة لاحظ أن بعضها ميت والبعض الآخر كسول على غير عادة فقال في رنة حزن: (ألا ترون أن كل ما أحب يسبقني إلى مصير أنا إليه سائر). إن ملاك الموت أو شيطانه قد أنس أي هذا المكان، وها هو يسلى نفسه بقتل الحشرات والأسماك قبل أن يسطوا على الرأس الكبير).

وأخذ منذ ذلك الحين يتردد يوميا على أصدقائه الصغار ليطمئن عليها.. ويرغم الطبيب على التردد عليها عدة مرات يوميا.. ويحاول معرفة سبب موتها وأخيرا اكتشف الطبيب أن المادة التي استعملت في بناء قاع حوض السمك تحتوى على نسبة كبيرة من النحاس كانت كافية ليتسمم بها السمك.. فنقلها في الحال إلى برميل من الخشب وأنقذ البقية الباقية من السمك الذي صار كما يقول المؤلف هواية من كان ينازل الأبطال ويداعب بالسيف والنار.

وعندما اشتد المرض همس إلى طبيبه:

(ما ألذ الراحة ياطبيبي العزيز. إن رفاهية الفراش دونها أي عرش في الوجود! إيه.. ما أعظم التغيير الذي طرأ على نفسي وعقلي وتفكيري! أيستطيب الفراش والراحة من كان مثال النشاط ومن كان تمضي عليه ليال بأكملها لا يغمض له جفن.. بل يفكر ويفكر.. يعمل ويعمل ولطالما أمليت أوامري على أربعة أو خمسة أشخاص مختلفين في وقت واحد... ولكني كنت إذ ذاك نابليون بونابرت.. أما الآن فإنني لاشيء. لقد غادرتني قواي ومواهبي وأعصابي، وأصبحت الحياة أياما تقضى لاعمل فيها ولا أمل. بالله ياطبيبي العزيز لا تلح على في أخذ الدواء فقد غلب الداء ولن يغلب).

وخانته قواه يوما فارتمى على مقعد قريب وأخذ يتمتم قائلا (حتى رجلاى تخونانى! رباه ماذا بقي مني إذن؟)).

وحين بلغت الروح التراقي، لم يرحم حاكم الجزيرة الانجليزي هذه اللحظة المؤثرة فاقتحم المنزل فثار عليه الطبيب ولم يبال صياحه. أين الجنرال بونابرت؟

فأجاب الطبيب (الجنرال بونابرت غير موجود هنا)

قال الحاكم: (ومتى اختفى، وأين؟)

فأجاب الطبيب بهدوء: (إن آخر مرة سمعت فيها اسم الجنرال بونابرت كانت في معركة «ابو قير» التي قـزم فيها حلفـاءكم ورماهم في البحر، وكانت مـعركة فاصلة حـاز فيها نصرا حـاسما. ومنذ ذلك الـوقت لم أسـمع بالجنـرال بونابرت، بل أصـبح الامــبـراطور بونابرت مـلء القلوب والأسماع، ترتعد له كل الفرائص وتتألب عليه كل الدول التي تخشى بأسه. فهلا تركت رجلا هذا مجده وماضيه يموت في هدوء؟).

فقال الحاكم: (أراك لاتزال تتكلم عن «الامبراطور»)

وكتب نابليون وصية لابنه.. وصية طويلة أوصاه فيها بأن لا يجعل نصب عينيه الانتقام لأبيه بل على العكس نصحه بأن يتعظ بمصيره، وأن لا يمضي في طريق الحرب والفتوحات تشبها به بل يعيش للسلام وللسلام وحده فإن القرن الواحد لا يحتمل حربين).

والطريف في هذه الوصيـة أن نابليون أوصى ابنه (إذا قدر له البـقاء بالمنفى، فعليـه أن يتزوج بأميرة روسية، فإن الارتباط بروسيا لما يزيد في نفوذ فرنسا في الخارج).

أما هذا الجزء من الوصية وقفت طويلا فإنه يحمل أكثر من دلاله:

* أن السياسة لا تعرف العواطف فروسـيا كانت بداية النهاية في تاريخه العسكري ولكن إذا كانت مصلحته مع الشيطان، فإنه يصافح الشيطان.. ألم يقلها ونستون تشرشل بعد قرن في الحرب العالمية الثانية؟

* أنه دائم التفكير في فرنسا على الرغم من أن حكومـتها خذلته وهو درس في حب الأوطان لأن الوطن يعلو كثيرا على الأشخاص أحسنوا أم أساءوا.

ومن المقابلات في هذه الوصـية أو المواقف المؤثرة أنه أوصى بتشريح جـثته وكتـابة تقرير عن معدته وإرسال هذا التـقرير إلى ابنه حتى يساعده الأطباء من خـلال التقرير على تجنب هذا المرض الوراثي- كان نـابليون يشك في سرطان المعدة لاسيـما أن والده مـات بهذا الداء- وقـد صدقت نبوءته حيث أثبت التشريح وجود سرطان بالمعدة.

ومن سخريـة الأقدار ان ابن نابليون الوحيـد مات سنة ١٨٣٢ وهو في الحادية والعـشرين من عمره.

أما نابليون فقد كانت آخر كلماته وهو يسلم الروح:

(جزيرة اليا... نابليون.. الجيش... جوزفين)

وكأن هذا الإحساس بجوزفين زوجته الأولى أو مطلقته، قد سرى إلى نفوس الفرنسيين فعندما استقبلوا رفاته بعد تسعة عشر عاما من موته ودفنه في منفاه، ليدفن على ضفاف نهر السين، أقاموا تمثالا كبيرا للامبراطوره جوزفين يمثلها وهى تستقبل زوجها العائد إلى وطنه فاتجهت كل القلوب إليها ولم يفكر أحد فى «مارى لويز» زوجته الثانية وابنة امبراطورة النمسا... وكانت مارى لاتزال على قيد الحياة تعيش فى عزلة تامة فى بارما.

لقد حقق الفرنسيون أمنية عزت على نابليون فقد رأى فى الحلم أثناء المنفى، جوزفين ترفض أن تعانقه فجعل الفرنسيون تمثالها يستقبله وقد نسى العتاب والجرح.

ولد نابليون في أجاكسو ١٥ أغسطس ١٧٦٩ ونوفى بسنت هيلانه ٥ مايو ١٨٢١.

وفي يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية التى رافقته فى المنفى إلى فرنسا.

وقبيل سفرهم ذهبوا إلى المقبرة وغطوها بالزهور والدموع ولكن واحدا منهم وهو السرجنت هوبارت- رفض بتاتا أن يترك قبر سيده. فبقى بجانبه يزوره يوميا مدة تسعة عشر عاما!. حتى استجاب العالم إلى فرنسا وسمح بنقل رفات الامبراطور إلى ضفاف السين تحت قبة الأنفاليد وعندها وافق هذا الإنسان المخلص على الرحيل ورافق رفات سيده حزين القلب ولكن مرتاح الضمير.

مثل هذه النماذج تجعل الحياة تستحق أن تعاش. ودفن نابليون فى فرنسا وسط مظاهر الإعظام والحب... إنه عشق الشعوب للبطولة.